

- الهدف الأعلى للمسلم -

ومن مقاصد الحج التذكير بالهدف الواحد للمسلمين وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة الآخروية الذي هو الهدف السامي الذي يجب أن يعرفه المسلمون جميعا ويسعوا جاهدين لبلوغه ، قال الله سبحانه ممتدحا صحابة رسوله ﷺ ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح : ٢٩] ففضل الله هو الجنة، ورضوان الله أكبر من ذلك .

ومعرفة هذا الهدف السامي أمر له أهميته ، وذلك لأنه الفاصل بين المسلمين حقا والمنافقين ، فالذين يظهرون الإسلام وهم في قرارة نفوسهم لا يريدون الوصول إلى هذا الهدف ليسوا مسلمين حقا ، وإنما هم منافقون .

- المساواة بين المسلمين -

ومن مقاصد الحج التقريب بين فئات المجتمع المتفاوتة حيث يلبس جميع الحجاج لباسا واحدا في حال إحرامهم ، ويشتركون جميعا في أداء المناسك ، فتضييق بذلك الفجوة بين الأغنياء والفقراء ، والكبراء والضعفاء ، حيث يتواضع الأغنياء والكبراء ، وترتفع معنوية الفقراء والضعفاء ، فلا يطغى غنى بكثرة ماله ، ولا كبير بعلو منزلته ، ولا يذل فقير لفقره ، ولا ضعيف لضآلة منزلته .

- التذكير بالآخرة -

إن مناسك الحج تشتمل على مقاصد عالية ،
وأسرار جلية ، فإن أعمال الحج تذكّر بالآخرة ، فحينما
يُعدُّ الحاج زاده وعدته للسفر فليطلب ذلك من المال
الحلال ، فإن الله تعالى لا يقبل عبادة نشأت من مال حرام ،
وليكن استعداده بالزاد المادي الذي به تقوم الحياة مذكرا
له بزاد الآخرة وهو التقوى .

وأول ما يقوم به الحاج هو الإحرام من الميقات ،
وثياب الإحرام تشبه الكفن الذي يلف به الميت ، فليتذكر
الحاج وهو يلبس ثياب الإحرام الموت الذي سيلاقيه ،
وليعدّ للأمر عدته من العمل الصالح واجتناب المعاصي .

ثم يقوم الحاج بالتلبية ، وهو حينما يقول : « لبيك
اللهم لبيك » إنما هو يحيب نداء الله عز وجل الذي دعاه
للحج وفرضه عليه ، فليكن أول ما يهتم به أن تكون
استجابته مقبولة عند الله تعالى ، وأن لا يكون ممن تردُّ

تلبيتهم ، ولقد كان الصالحون من السلف يهتمون كثيراً
بإجابة التلبية، وفي ذلك يقول سفيان بن عيينة - رحمه الله
- حج علي بن الحسين رضي الله عنهما فلما أحرم
واستوت به راحلته أصفر لونه وانتفض ووقعت عليه
الرعدة ولم يستطع أن يلبي ، ف قيل له : لم لاتلبي ؟ فقال :
أخشى أن يقال لي : لا لبيك ولاسعديك ، فلما لبي
غشي عليه ووقع عن راحلته ، فلم يزل يعتريه ذلك حتى
قضى حجه .

فإذا دخل الحاج مكة المكرمة فليتذكر أنه قد دخل
في حرم مقدس آمن ، ويستشعر عظمة المكان الذي دخل
فيه ، وليكن حرصه على تعظيم الحرم ورعاية الأمن فيه
مذكرا له بضرورة توفير الأمن والحماية لنفسه من
وساوس الشيطان ومراودة النفس الأمارة بالسوء .

فإذا شرع الحاج في الطواف بالبيت فليتذكر أنه قد
دخل في صلاة ، فالطواف صلاة إلا أنه قد أبيح الكلام

فيه كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما^(١)
فليخشع خشوعا كاملا وليحضر قلبه مع الله عز وجل
وليستشعر عظمته وهو يطوف حول بيته ويدعوه ، وعلى
قدر حضور القلب مع الله عز وجل وتعظيمه يكون أثر
الطواف في طمأنينة القلب وسكينة وأثر ذلك في تهذيب
السلوك وتقويم الأخلاق .

ومما ذكر في الخشوع في الطواف وحضور القلب مع
الله تعالى ما روي عن عروة بن الزبير قال: خطبتُ إلى ابن
عمر ابنته ونحن في الطواف ، فسكتَ ولم يجبني بكلمة ،
فقلت : لو رضي لأجابني والله لا أراجعك بكلمة ، فقدر
له أنه صدر إلى المدينة قبلي ، ، ثم قدمت فدخلت مسجد
رسول الله ﷺ ، فسلمت عليه وأدّيت من حقه ما هو أهله
وأتيته فرحب بي ، وقال: متى قدمت ؟ قلت: هذا حين
قدومي ، قال: كنتَ ذكرتَ لي سودة بنت عبد الله ونحن

(١) أخرجه الدارمي ٤٤/٢ ، وابن حبان ٥٤/٦ .

في الطواف نتخايل الله بين أعيننا ، وكنتَ قادراً أن تلقاني في غير ذلك الموطن ، فقلت : كان أمراً قدراً ، فقال: مارأيك اليوم ؟ قلت: أحرص ماكنت قط ، فدعا ابنه سالماً وعبد الله فزوجني^(١) .

فهذا تذكير بليغ من عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بما يجب أن يكون عليه المسلم في أثناء أدائه للعبادة، فإن إباحة الكلام في الطواف لاتعني أن ينصرف الطائف عن موضوع الطواف ويتحدث في أمور الدنيا ، وإنما يباح الكلام للحاجة الطارئة .

وليتذكر الحاج بطوافه بالبيت لقاءه بربه عز وجل في الآخرة والنظر إلى وجهه الكريم ، فإن من زار بيتاً طمع في لقاء صاحبه .

والكعبة بيت الله عز وجل ، فمن زار الكعبة وطاف بها مخلصاً لله تعالى خاضعاً له مخلصاً قلبه من غيره فإنه

(١) حلية الأولياء ١/ ٣٠٩ .

جدير بلقاء الله جل وعلا يوم القيامة وتكريمه ، ولما كانت
أبصار الناس قليلة عن رؤية الله عز وجل في الدنيا فإنه
تعالى قد وعد أوليائه بالظفر بلذة النظر إلى وجهه الكريم
يوم القيامة بعد أن يُبدّلوا خلقا آخر ، فليسعدوا برؤية
بيت الله تعالى والطواف حوله رجاء أن ينالوا منتهى
مناهم فيسعدوا بالنظر إلى وجه ربهم الكريم في الآخرة .

- إظهار عزة الإسلام -

ومن سنن الطواف الرَّمْل ، وهو أن يسرع الطائف في مشيه في الأشواط الثلاثة الأولى وذلك في طواف القدوم والعمرة ، والأصل في ذلك ما كان من رسول الله ﷺ في عمرة القضاء ، وذلك بعد صلح الحديبية بسنة ، وكان ذلك من شروط الصلح ، وقد أخرج الشيخان رحمهما الله من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد وهنتهم حمى يثرب ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم غداً قوم قد وهنتهم الحمى ، ولقوا منها شدة ، فجلسوا مما يلي الحِجْر ، وأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا ثلاثة أشواط ، ويمشوا بين الركنين (يعني حيث لا يراهم المشركون) ليرى المشركون جلدهم (أي قوتهم وصبرهم) فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم ، هؤلاء أجلد من كذا وكذا .

قال ابن عباس : ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا
الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم^(١) . وقال محمد بن
إسحاق : فكان ابن عباس يقول : كان الناس يظنون أنها
ليست لهم ، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الحي
من قريش للذي بلغه عنهم ، حتى إذا حج حجة الوداع
فلزمها فمضت السنة بها^(٢) .

فالرمل في الطواف تذكير بذلك الموقف من رسول
الله ﷺ وأصحابه يوم أن دخلوا مكة وهم في حال حرب
مع الكفار ، والكفار يودون أن يروا فيهم أي مظهر من
مظاهر الضعف ليستعزوا عليهم وليرفعوا من شخصيات
أتباعهم ، ولكن النبي ﷺ فوت عليهم هذه الفرصة حينما
أمر أتباعه بالإسراع في المشي حال الطواف فانقلبت

(١) صحيح مسلم ، رقم ١٢٦٦ (ص ٩٢٣) ، صحيح البخاري ، رقم
١٦٠٢ (٤٦٩/٣) .

(٢) سيرة ابن هشام ٤٩٩/٣ .

مفاهيم المشركين عن المسلمين وتحطمت آمالهم في إساءة سمعة المسلمين وإضعاف قوتهم .

هذا وإن الحاج الذي يتذكر هذا المعنى السامي وهو يرمل في طوافه ينبغي له أن يستصحب هذا الشعور بعد ذلك ، فيظهر دائماً عزة الإسلام والمسلمين ، وأن لا يقف موقفا يضع فيه الإسلام في موقف الضعف ولا المسلمين في موقف الذل .

وليتذكر الحاج فيما يواجهه في أدائه للمناسك من شدة وزحام ما سيلاقيه يوم المحشر من الأهوال ، فليتنبه للعمل قبل حلول الأجل ، وليتذكر في حرارة الشمس أيام الحج دنو الشمس من الخلائق يوم القيامة فليستعد للنجاة من حر ذلك اليوم .

- تقوية الإيمان بالله عز وجل -

إن من مقاصد الحج تقوية الإيمان بالله تعالى ،
والعبادات كلها إذا تم أداؤها بإتقان ترفع من مستوى
الإيمان ، فالإيمان كالبناء ، وإنما ينمو بناء الإيمان ، ويتقوى
بالأعمال الصالحة ، كما أنه يضعف ويتهدم بالأعمال
السيئة ، فالله سبحانه - مثلاً - سمي الصلاة إيماناً، وذلك
في قوله ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ
الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكِ كِبَرَةٌ إِلَّا عَلَى
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٤٣] يعني وما صح ولا
استقام في شرع الله تعالى أن يضيع ثواب صلاتكم التي
كنتم تتوجهون بها نحو بيت المقدس لأنكم إنما فعلتم ذلك
طاعة لأمر الله عز وجل ، ومن أطاعه نال ثوابه ، ومما
يدل على ذلك ما أخرجه الطيالسي والنسائي من حديث
البراء بن عازب رضي الله عنه « أنه مات على القبلة قبل

أَنْ تُحَوَّلَ رِجَالٌ وَقَتَلُوا فَلَمْ نَدْرَ مَا نَقُولُ فِيهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ
تَعَالَى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ صَلَاتُكُمْ إِلَى بَيْتِ
الْمَقْدَسِ ^(١) .

وَمِنْ أَسْبَابِ كَوْنِ الْحُجِّ دَافِعًا إِلَى ارْتِفَاعِ مَسْتَوَى
الْإِيمَانِ أَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَى أَدْعِيَةٍ كَثِيرَةٍ تَقْتَرِنُ بِكُلِّ مَنَاسِكَ
الْحُجِّ ، فَالْحَاجُّ حِينَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرِهِ
وَدَعَائِهِ يَكُونُ حَاضِرَ الْقَلْبِ مَعَهُ جَلَّ وَعَلَا مُسْتَشْعِرًا
عَظَمَتِهِ ذَاكِرًا عِلْمَهُ بِهِ وَرِقَابَتَهُ عَلَيْهِ ، وَبِهَذَا يَتَقَوَّى إِيمَانُهُ
وَيَزْدَادُ يَقِينُهُ .

وَلَا يَنْبَغِي لِلْحَاجِّ أَنْ يَهْمَلَ الْأَدْعِيَةَ الَّتِي تَقْتَرِنُ
بِالْمَنَاسِكَ لِأَنَّهَا تَصِلُهُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَتُحَوَّلُ الْمَنَاسِكَ مِنْ أَفْعَالٍ
قَدْ لَا تَشْتَمِلُ عَلَى حُضُورِ الْقَلْبِ وَتَعْظِيمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَى
عِبَادَاتٍ حَيَوِيَّةٍ تَصَاحِبُهَا النِّيَّةُ وَمَشَاعِرُ الْقَلْبِ ، وَلِذَلِكَ
فَإِنَّ الَّذِينَ يَنْبِشُونَ غَيْرَهُمْ فِي رَمِي الْجُمَرَاتِ يَفْقَدُونَ

(١) فتح الباري ٩٦/١ .

روحانية الأدعية المصاحبة لهذا النسك ، ولهذا فإن عليهم من أجل إكمال هذا النسك أن يرموا في الليل ليقوموا بأداء هذه العبادة بأنفسهم ما لم يكونوا عاجزين عن ذلك . ومن أسباب تقوية الإيمان في الحج مشاهدة جموع الحجاج في الحرم الشريف والمشاعر المقدسة ، حيث يتتاب الحاج شعور قوي بعزة هذا الدين العظيم الذي يجمع ذلك العدد الكبير كل عام من غير مصلحة دنيوية ، بل بتكاليف مالية وتعب في الأجسام ، فيدرك الحاج أن وراء هذا الدافع لجموع هؤلاء البشر على مختلف طبقاتهم وأعمارهم مبدأ عظيماً لا يستطيع البشر أن يوجدوه ، ذلك لأن البشر مهما أوتوا من سلطة وقوة لا يستطيعون أن يجمعوا معشار هذا العدد إلا بترغيب دنيوي حاضر أو آمال دنيوية مستقبلية ، فإذا استشعر الحاج هذا المعنى العظيم فإن إيمانه بهذا الدين يقوى ويقيه به يزداد رسوخاً ، وكم من أناس حجوا أو اعتمروا مع أهاليهم أو زملائهم على غير نية ، فلما شاهدوا جموع الحجاج

والمعتمرين اهتدوا بعد ضلالة واستقاموا بعد انحراف ، أو
ازدادوا تمسكا بالدين إن كانوا على هداية واستقامة .

ومن أسباب ارتفاع الإيمان أن يؤدي المسلم أعمالا
لا يعرف الحكمة من شرعيتها ، وإنما يطبقها طاعة لله
تعالى، وإذا نظرنا إلى بعض مناسك الحج نجد أنها مما
لاتدرك حكمته ، وإنما هي أمور تعبدية يفعلها الحاج
استجابة لأمر الله جل وعلا وفي ذلك يقول أمير المؤمنين
عمر رضي الله عنه وهو يقبل الحجر الأسود : « والله إنني
لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنني رأيت رسول
الله ﷺ يقبلك ما قبلتك » ^(١) ، وكون الإنسان يقوم بعبادات
لا يدري ما حكمة مشروعيتها أبلغ في كمال العبودية ،
لأن النفوس ميالة بعض الشيء إلى ما تدرك حكمة

(١) أخرجه الشيخان ، صحيح مسلم، رقم ١٢٧٠، صحيح البخاري،
رقم ١٦١٠ .

شرعيته ، أما ما لا تدركها فلا يدفعها إلى أداء العمل إلا
كمال الطاعة والاستسلام لله عز وجل .

هذا وإن مما يترتب عليه قوة الإيمان الاتصاف
بالتقوى وقد أمر الله تعالى بالتزود بالتقوى في الحج حيث

يقول ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِ

الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٧] والمتقون هم الذين يتقون
عذاب الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه ، ونظراً
لأهمية التقوى فقد تكرر ذكرها في القرآن الكريم بصيغ
متعددة أكثر من مائتي مرة .

ولقد جاء عن عبد الله بن عباس في هذه الآية أنه
قال : « كان أناس يخرجون من أهلهم ليست معهم
أزودة ، يقولون : نخرج بيت الله ولا يطعمنا ؟ فقال الله :
تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس » ذكره الحافظ ابن
كثير وقال في قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ ﴾ : لما
أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة وهو

استصحاب التقوى إليها كما قال ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسًا تَقْوَى﴾^(١) ذلكَ خَيْرٌ لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشداً إلى اللباس المعنوي وهو الخشوع والطاعة والتقوى ، وذكر أنه خير من هذا وأنفع^(١) .

والتقوى هدف مشترك بين جميع العبادات ، فإن من مقاصد العبادات المهمة أن يخرج العابد منها بضمير حي وقلب يقظ مدرك للهدف السامي من عبادته وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

فمناسك الحج بما تشتمل عليه من عمل وذكر تشد الحاج إلى تذكر عظمة الله عز وجل ، واستحضار رقابته على خلقه ، وبالتالي فإنها تشد الحاج إلى تقوى الله جل وعلا بفعل جميع أوامره واجتناب جميع نواهيه .

وإنما يحصل الحاج على التقوى إذا أدى أنساك الحج كما شرعها الله تعالى ، ولم يتهاون بشيء منها اتباعاً

(١) تفسير ابن كثير ٢٤٨/١ .

لللهوى ، أو مجاملة لغيره ، وأن يكون في حال أدائها
خالص النية حاضر القلب مع الله عز وجل مستحضرا
عظمته جل وعلا .

فالحج فرصة عظيمة للتزود بالتقوى ، وإصلاح
أحوال النفوس ليستمر الحاج بعد ذلك على الاستقامة
والصلاح .